﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

مِنَ الحِكمَةِ عدمُ المُساواةِ بينَ جَزاءِ المُؤمنينَ والكافرينَ

لمّا بيّنَ اللّه تعالى في الآية السّابقة على سبيلِ الإجمالِ أنّ إنكارَ الحَشْرِ والنّشْرِ يوجِبُ الشَّكَّ في حِكمةِ اللّه تعالى بخلقِهِ السَّماءَ والأرضَ وما فيهما من آياتٍ باهرةٍ وحِكَمٍ عجيبةٍ ودلائلَ متينةٍ ذكَرَ في هذه الآية - على سبيلِ التّفصيلِ - الفرقَ بينَ جَزاءِ المؤمنينَ والكافرينَ[1]؛ إذ التَّشكيكُ بيومِ الحسابِ يؤدّي إلى التَّساوي بينَ مصيرِ المؤمنين باللّه تعالى والكافرينَ به، مع أنَّ المؤمنين قد تعرّضوا بإيمانهم إلى الإيذاءِ والتَّعبِ واحتمالِ المشاقِّ لنيل رضا ربِّهم والرّاحة في الدّار الآخرة، والكافرينَ قد تقلَّبوا في البلاد وتلذّذوا بصوَرِ الفساد، فأمرٌ بديهيٌّ أنْ لا يكونَ الموتُ خاتمةَ المَطاف، بل لا بدَّ من العدل والإنصاف، وإلّا لكانتِ الحياةُ عبثًا وباطلًا، واللّهُ تعالى منزّهٌ عنهما؛ فكيفَ يُقِرُّ المشركونَ بربوبيّتِه ويَنسبونَهُ إلى الجهل والعبَث واللّعب؟!

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَٱلۡفُجَّارِ﴾: أصلُ الفُجور: المَيْلُ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ. ومنه قَوْلُهم في الدُّعاءِ: (ونَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ)؛ أي: يَخْتَلِقُ الكَذِبَ عليك[2]. ويُقال: أفْجرَ الرَّجُلُ، إذا جاءَ بالفَجَرِ، وهو المالُ الكثير، وأفجَرَ إذا كذَبَ، وأفجَرَ إذا عَصَى بِفَرْجِه، وأفجَرَ إذا كَفَرَ، ومثلُهُ فَجَرَ وفَجَّرَ[3]. وفاعلُ الفُجورِ: فاجِرٌ، والجمعُ: فُجّارٌ[4]. وهم الَّذينَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 388.
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فجر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (فجر).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فجر).

شِعارُهم الفُجورُ، وهو أشدُّ المَعصيةِ، والمُرادُ به: الكُفرُ وأعمالُه الَّتي لا يُراقِبُ أصحابُها التَّقوى[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يَستوي عندَ اللهِ المؤمنونَ والمُفسِدونَ

يُبيِّنُ الحقُّ تعالى أنَّ حِكمتَه اقتضَتْ عدمَ المساواةِ بينَ الأخيارِ والأشرارِ، فيقولُ سبحانه: بلْ أنجعَلُ الَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ بإخلاصٍ للّه تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي؟! بلْ أنجعَلُ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللّهِ وعذابَه بفعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِه؟! كلّا؛ فأولئك لا يَستَوونَ عندَ اللّهِ، ولا بُدَّ أن يُجازيَ كُلًّا منهم بما يَستَحِقُّه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ العطفِ بـ ﴿أَمْ﴾:

عدمُ استواءِ المؤمنين والكافرين في الجزاء

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحرفِ العطفِ ﴿أَمْ﴾، وهي مُنقطِعةٌ غيرُ مُتَّصِلةٍ بما قبلَها البتَّةَ، وهي تُفسَّرُ بالحرفين: (بل وهمزة الاستفهام)، والتَّقدير: (بلْ أنجعلُ..؟)، ومعناها الإضرابُ الانتقاليُّ من نفيِ العَبَثِ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ إلى عَدَمِ العَبَثِ في خَلْقِ النّاسِ بإنكارِ المُساواةِ بينَ الصّالحينَ منهم والمُفسدين، وعَدمِ استواءِ المُؤمنينَ والكافرينَ في العَواقِب؛ ليكونَ مُقرّعًا لهم على إنكارِ البَعثِ والحِساب، الَّذي يلزمُ منه تجهيلُ الخالقِ وعبثيّتُهُ وعدمُ حِكمتِه!

بلاغةُ الاستفهامِ في الآية:

يَتجلّى في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 250.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 79، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 63.

التّعجيبُ من حماقةِ المُشركينَ في جَعْلِهمُ المؤمنينَ كالكافرين

﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أسلوبُ الاستفهامِ الإنكاريِّ الّذي تَقتضيهِ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعة، والغرضُ منه الإنكارُ والنّفيُ، إذِ المعنى: أنّه لو بطلَ الجزاءُ كما يقولُ الكافرون لاستوتْ عندَ اللّه تعالى أحوالُ مَن أصلحَ وأفسَدَ، واتّقى وفجَرَ، وذلك مُنافٍ للعدلِ والحِكمة، فأنكرَ أنْ يكونوا سواءً عندَ اللّه ﷻ، ولمّا لم يُجازِ كلَّ فريقٍ على عمَلِهِ بما يَستحِقُّه في هذه الحياةِ الدّنيا - لأنَّ المُشاهَدَ من حال النّاس خلافُ ذلك - تعيّنَ أنْ يكون الجزاءُ في عالَمٍ آخرَ، وهو الّذي يسلكُ له النّاس بعدَ البعث. كما أنّ في الاستفهامِ عن دعوى المشركينَ بصيغة الإنكارِ أثرًا في تلقّي السّامعِ هذه الدّعوى بمزيدِ الاشمئزازِ والتعجُّبِ مِن حماقةِ أصحابِها[1].

سرُّ إيثارِ فعلِ الجَعْل:

الحُكمُ بالتّسويةِ مُنافٍ للحِكمةِ

أوثر في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ (جَعَلَ)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من الأفعالِ (فعلَ وصنعَ) وسائرِ أخواتِهما، ويَتصرّفُ على خمسةِ أوجُهٍ حسبَ السّياقِ الّذي يَرِدُ فيه[2]، وهو في هذه الآيةِ بمعنى الحُكمِ بالشّيءِ على الشّيءِ، ففي الآيةِ إنكارُ الحُكمِ بالتّسويةِ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ، ونفيٌ لتصييرِ المؤمنينَ بمنزلةِ المُفسدينَ بسببِ عدمِ مُكافأتِهم على ما بذَلوهُ، وبالتّسويةِ بينَهم بالموتِ الّذي هو النِّهايةُ عندَ المُشركينَ.

دلالةُ المُضارَعةِ وضميرِ التّعظيمِ في ﴿نَجْعَلُ﴾:

حكمةُ العظيمِ تمنعُ التّسويةَ بينَ الصّالحينَ والمُفسِدين

جاءَ الفعلُ ﴿نَجْعَلُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مضارعًا مُسنَدًا إلى ضميرِ العظمةِ؛ للدّلالة على تعظيمِ المتكلِّمِ سُبحانه وعُلوّ قدرِهِ، وفيه أيضًا

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 90، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 249.
(2) الراغب، المفردات: (جعل).

إدخالُ المَهابةِ في قلوبِ العباد، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ العظيمَ تأبى له عظمتُهُ وحكمتُهُ التّسويةَ بينَ عباده المؤمنينَ الصّالحينَ وبينَ الكافرينَ المُفسدينَ من خلقِهِ[1]. وقد دلّتْ صيغةُ المضارع ﴿نَجۡعَلُ﴾ على التَّجدُّد الاستمراريّ؛ إذ الموتُ مصيرُ المُكلَّفين، فإنْ كان نهايةَ المَطاف فإنَّ الجعلَ واقعٌ على سبيلِ الاستمرار، وذلك لا يليقُ بحِكمةِ الجبّار.

علّةُ التّعبيرِ بالموصولِ في النّظْم:

إيمانُ المؤمنين سببُ استحقاقِهِمُ المدحَ مِن ربِّ العالَمين

عُبِّرَ في قولِهِ تَعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلَتِه ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ الاسمِ الظّاهر (المُؤمنينَ أوِ المُصلحين)؛ لعمومِ الموصول وإبهامِهِ المُحتاجِ لجملةِ الصِّلة، الّتي تفيدُ البيانَ بعدَ الإبهام والتّوضيحَ بعدَ الإغماض، وللتّنبيهِ على علّةِ الحُكم، والإيماءِ إلى وجهِ عدمِ التّسويةِ بينَهم وبينَ المُفسِدين، إذ إيمانُ المؤمنينَ بربِّ العالمينَ وحرصُهُم على الأعمالِ الصّالحةِ علّةٌ لعدمِ تسويتِهِم بالكافرينَ المُفسِدينَ.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقّقُ إيمانِ المؤمنين في الدّنيا ورُسوخُهم فيه

ورَدَ في قوله تَعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ إيمانِ المؤمنين في دارِ الدّنيا، ورُسوخِ هذا الوصفِ فيهم؛ وذلك لأنّ الإخبارَ عن الشّيء بصيغةِ الماضي يَقتضي تحقُّقَ الخبر، ويَقتضي كونَ المُخبَرِ عنه مُتقدِّمًا على ذلك الإخبار[2].

دلالةُ اقترانِ الإيمانِ بالعَمَلِ الصّالح:

عُطِفَ العملُ الصّالحُ على الإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ تنبيهًا على فضيلةِ العمَلِ الصّالِحِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 370، والشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

بذِكْرِهِ مرَّتين: مُندرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ - بناءً على أنَّ حقيقةَ الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، وهذه دلالةُ إشارة - ومُنفرِدًا، وهذه دلالةُ عبارة؛ وذلك لعدَمِ التَّهاونِ فيه، وللتّحذيرِ من الظّنّ بأنّ الإيمانَ كافٍ دونَ عمَلِ الصّالحات، أوْ مِن عطفِ المُغايِرِ بناءً على أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ، والعملُ خارجٌ عن حقيقتِهِ، فيكونُ في العطف دلالةٌ على أنَّ مَن جمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ كان مُصلِحًا في الأرض.

التّنبيهُ على فضيلةِ العملِ الصّالحِ بذِكْرِهِ مرَّتينِ إشارةً وعِبارةً

سرُّ إيثار لفظِ (عملوا) دونَ غيره:

أوثر في قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ (عَمِلَ) دون غيره كـ(فعَلَ) مثلًا؛ لأنّ المؤمنَ يَقصِدُ إلى الأعمالِ الصّالحات، والعملُ لا يكونُ إلّا بقصدٍ؛ فهو أخصُّ من الفعل[1]، كما يُطلَقُ الفعلُ (عمل) على مُعالجةِ الشّيءِ والدَّأبِ عليه، والمؤمنونَ يَجتهدونَ ويَدأبونَ على عمَلِ الصّالحاتِ.

قصدُ المؤمنين إلى الأعمالِ الصّالحة والدَّأبِ عليها

نكتةُ حذفِ الموصوفِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحذف، فـ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، والتّقدير: وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحات[2]، والقرينةُ على تعيينِ المحذوف هو الفعلُ (عَمِلوا)، واكتفي بالقرينة عن التّصريح بالموصوف؛ اقتصادًا في اللّفظ وإيجازًا في التّركيب، ونكتةُ ذلك تنزيلُ الصّفةِ منزلةَ الموصوف؛ لتتّجهَ الأذهانُ نحوَ الصّلاحِ نفسِهِ، وهذا أشدُّ أثرًا وأرسخُ في الحثِّ والتّرغيب.

التّرغيبُ في الصّلاحِ ذاتِهِ

دلالةُ التّعريف في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

يجوزُ أنْ تكونَ (اللّامُ) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للاستغراقِ بقرينةِ دخولِها على الجمعِ فتفيدُ العمومَ والشُّمولَ، وفي ذلك ضربٌ من المبالغةِ في مدح أهل الإيمان، حتّى

الحثّ على استغراقِ الأعمالِ الصّالحةِ جميعًا

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 359.

كأنّهم ما تركوا عملًا صالحًا من الأعمالِ إلّا عَملوه بالفعلِ أوْ بالنّيّة، وفيه إشارةٌ وحثّ على اغتنام الأعمالِ الصّالحة جميعًا، وأنْ لا يحْقِرَ المسلمُ من المعروفِ شيئًا، فلا يعلمُ العبد أيُّ عملٍ تكونُ به نجاتُهُ.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

شـأنُ المؤمنين الصّادقين الاجتهادُ في الاستكثارِ منَ الصّالحات

جاءَ لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بصيغة الجمع، وفي ذلك إيماءٌ إلى الإتيانِ بها بأنواعِها دونَ الاكتفاء ببعضِها، فأعمالُ الخير كثيرةٌ، وينبغي للمؤمنِ الحرصُ على الاستكثارِ منها والاجتهادِ في طلَبِ أعلاها أجرًا.

نكتةُ المُغايرةِ في التّعبيرِ بينَ الفريقين:

تحقُّقُ الصّلاحِ في المؤمنينَ، وثبوتُ الإفسادِ في الكافرين

يُلاحَظُ في قولِهِ تَعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنّه عبّر عن المؤمنينَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ووصلَهُ بالفعلين ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وعبّر عن الكافرينَ بالوصفِ (المفسدين)؛ وذلك لأنّ الفعلَ يقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ والتَّحقُّقَ، والوصفَ يقتضي الثُّبوتَ، فالمؤمنونَ لا ينفكّون يعملونَ الصّالحاتِ، ويتجدّد منهم ذلك كلّ وقتٍ ويتحقّق، وأمّا في جانب الإفسادِ فالمرادُ مَن ثبتَ على فسادِهِ؛ لِما في اسم الفاعل من الدّلالةِ على ثبوتِ صفةِ الإفساد في المذمومينَ به، ورُسوخِ هذه الصِّفة فيهم، فهم مطبوعونَ على الفساد والإفساد[1]. ولئلّا يَدخُلَ فيه مَن أفسدَ وتابَ؛ فإنّه مِن فريق المؤمنين[2].

بلاغةُ الاكتفاءِ في الآيةِ:

ذكـرُ الأهـمِّ في كلّ فريق تعليلٌ لعدمِ التّسويةِ

يُلحَظُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التَّعبيرُ بظاهرةِ الاكتفاءِ البديعيّ[3]؛ إذ حُذف في جانبِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لفظُ (المُصلحين)

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 373.
(2) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 371.
(3) الجرجانيّ، التعريفات، ص: 12.

بقرينةِ ذكرِ (المُفسِدين)، وحُذف (الَّذين كفروا وعصَوا) في جانبِ (المفسدين) بقرينةِ ذكرِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الحذفُ من الأوّل لدلالة الثّاني وبالعكس، والسِّرُّ في ذلك بيانُ أنَّ الإصلاح في الأرض يكونُ بالإيمان والعملِ الصّالح، وأنَّ الإفساد في الأرض يكونُ بالكُفر والعِصيان، واقتصرَ في كلٍّ فريق على الأهمِّ فيه تفصيلًا وإجمالًا؛ إذ فصّل في الإيمانِ والعمل الصّالح لأنّه يحتاجُ إلى مكافأةٍ، وأجملَ في الإفسادِ في الأرض لأنّه بيانٌ لوجهِ العقوبة، فلا يمكنُ إنكارُ البعث والحسابِ، وإلّا لزمَ نفيُ الحكمة بالتَّسويةِ بينَ الباذلين الجهدَ والمُتنعّمينَ بالإفسادِ في الأرضِ. أو أنّه ذكر أدنى الإيمانِ تنبيهًا على شرفِه، وأنّه سببُ السّعادة وإنْ كان على أدنى الوجوهِ، وذكرَ أعلى أحوالِ الفَساد إشارةً إلى أنّه يغفرُ ما دونَ ذلك لمَن يشاء، وذكر أعلى أحوالِ التَّقوى إيماءً إلى أنّه لا يوصَفُ بها ويَستحِقُّ جزاءَها إلّا الرّاسخُ فيها؛ ترغيبًا للمؤمن في أنْ يترقّى إلى أعلى دَرَجاتها[1].

وجهُ تقديمِ المؤمنينَ على المُفسِدين:

العنايةُ بالمؤمنينَ وتشريفُهم، وإهمالُ المفسدينَ وتحقيرُهم

تقدّم في قولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرُ المؤمنينَ على المفسدينَ لنكتةِ الاهتمام؛ إذ بدأ بالمؤمنين اعتناءً بهم وتشريفًا لهم، وأخّرَ المُفسدينَ إهمالًا لهم وتحقيرًا لشأنِهم.

دلالةُ التّشبيه في الآية:

وردَ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استعمالُ حرفِ (الكاف) الدّالِّ على التَّشبيهِ المقتضي للتّسويةِ بين الفريقين. والمعنى: إنكارُ المُساواةِ والمشابهةِ في الجزاءِ بينَ الَّذين آمنوا وعملوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 373.

الصّالحات وبينَ المُفسدينَ في الأرض؛ فالتّسويةُ بينَهما لا يشكُّ عاقلٌ في فسادها ومُنافاتها للحكمة[1]. وإنَّما اقتصرَ النَّظمُ على إنكارِ المُشابهة في الجزاءِ؛ لأنَّ لازمَ مدّعى الكافرين بإنكارهم الحسابَ المساواةُ بين المؤمنين وغيرهم في المصير؛ إذ بالموتِ ينتهي المشهدُ بأكملِه، فلا مكانَ للجزاء ولا يومَ للحساب على الإيمان والكفران، والعملِ الصّالح والعملِ المُفسِد، فجاء النَّظمُ بنفي المساواةِ فقط دونَ بيانِ علوِّ منزلةِ المؤمنين وسفالةِ منزلةِ الكافرينَ.

نفيُ التّسويةِ بينَ المؤمنين والمُفسِدينَ

بقي أنَّ انتفاءَ اللّازمِ يستلزمُ انتفاءَ الملزوم، ويلزمَ مِن دعواهم إنكارَ يوم الحساب التَّسويةُ بين مصيرِ المؤمنين وغيرهم، وإذا ثبت انتفاءُ التَّسويةِ اللّازمة ثبت انتفاءُ الملزوم وهو دعوى الإنكار، وعلّةُ الانتفاءِ لزومُ تجهيلِ الحكيم تعالى، وذلك لا يصدرُ مِن عاقلٍ.

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

استُعمِلَ في قَوْله تَعالى: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالُّ على الظّرفيّة المكانيّة، والنّكتةُ في ذلك الإشارةُ إلى أنّ إفسادَ الكافرينَ يتغلغلُ في الأرضِ ويتجذّر فيها، حتى إنَّ الأرض لتفسُدُ بفسادِهم؛ فكيف بمَن فيها؟!

كفرُ الكافرينَ يؤدّي إلى فسادِ الأرض وإفسادِ مَن فيها

سرُّ تكرارِ ﴿أَمْ﴾ العاطفة:

يُلاحَظُ في قولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ تكرّرُ لفظِ ﴿أَمْ﴾، وهي هنا منقطِعةٌ أيضًا، ومُفادُها إضرابُ انتقالٍ ثانٍ؛ للارتقاءِ في الاستدلال على أنّ الحِكمةَ الربّانيَّةَ بمُراعاة الحقّ وانتفاءِ الباطلِ في الخلق تقتضي الجزاءَ والبعثَ لأجله. ومعنى الاستفهامِ الّذي تقتضيه ﴿أَمْ﴾ الثّانيةُ الإنكارُ كالّذي اقتضته ﴿أَمْ﴾ الأولى، وهذا الارتقاءُ في الاستدلالِ لقصد زيادةِ التّشنيع على

الارتقاءُ في الاستدلالِ على مُنكِري البَعْثِ والجزاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 249.

مُنكري البعث والجزاء؛ بأنّ ظنّهم ذلك يقتضي جَعْلَ اللّهِ المتّقينَ مُساوينَ للفُجّار، وذلك ما لا يقوله عاقل[1].

دلالةُ الآيةِ بينَ التّكرير والتّأسيس:

التّقْوَى وصفُ المؤمنينَ والفجورُ وصفُ الكافرين

يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ تكريرًا أو تأسيسًا، فقد تكون الآيةُ تكريرًا للإنكارِ الأوّلِ باعتبارِ وصفَينِ آخرَينِ هما أدخلُ في إنكارِ التّسويةِ منَ الوصفينِ الأوّلين، وهما التّقْوَى وصفُ المُؤمنينَ والفجورُ وصفُ الكافرين، فيَمنعانِ التّسويةَ من الحكيمِ كما يمنعُ الوصفانِ الأوّلانِ؛ ففيه مُبالَغَةٌ.

وقد تكونُ هذه الآية تأسيسًا، فيكونُ الإنكارُ الأوّل بينَ المؤمنينَ والكافرينَ، والإنكارُ الثّاني بين المُتّقين من المؤمنين والفجّارِ منهم، ولذا قال ابن عبّاس: الآيةُ عامّةٌ في جميعِ المسلمينَ والكافرين. والقولُ الأوّلُ أرجحُ؛ لأنّ حملَ الفجّار على فجرةِ المؤمنين ممّا لا يساعِدُهُ المقام، والكَلام مسوقٌ لردِّ ظنّ الكفّار المذكور[2].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

التّقوى تركُ المحظورات وبعضِ المباحات

عُبّر في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ بوصفِ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهو اسمُ فاعل مجموعٌ مِن (التّقوى)، وهي في عُرفِ الشّرع: حِفْظُ النّفسِ عمّا يُؤَثِّمُ، وذلك بتركِ المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المُباحات[3]، والمقصودُ مدحُ الرّاسخينَ من المؤمنينَ في التّقوى الموجبةِ للتّوقّف عن كلّ ما لم يدلَّ عليه دليلٌ[4].

سرُّ التّعبير عن (المؤمنين) بالفعل، وعن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالوصفِ:

ثبوت التّقوى وتجدّدُ الإيمان زيادةً ونقصانًا

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ عن التّقوى بالوصف ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وعن الإيمانِ والعمل الصّالح بالفعلِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 250.
(2) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 411، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 181.
(3) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 373.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنّ الفعل يقتضي التَّجدّدَ والحدوثَ، والوصفَ يقتضي الثُّبوتَ والرّسوخ، فالتّقوى أمرٌ اعتقاديٌّ تجدُّدُه خفيٌّ غيرُ ظاهر، وهو أقربُ للثُّبوت؛ وأمّا الإيمانُ والعملُ الصّالح فهو أمرٌ فعليّ يتجدّدُ شيئًا فشيئًا، ويزيدُ وينقُصُ، وتجدّدُه ظاهرٌ يدركُ بالحِسّ[1]. كما أنَّ مَن آمن وعمل صالحًا فإنَّه مُتَّقٍ، ومَن أفسدَ في الأرض فإنَّ فسادَهُ بسببِ فجورِهِ.

بلاغةُ (التّشبيهِ المقلوبِ) في الآية:

المبالغةُ في إنكارِ مُشابهةِ الكافرينَ للمُؤمنين

جعلَ بعضُ العلماء قولَهُ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ من قبيلِ (التّشبيه المقلوب)، وظاهرُ الكلام: (أم نجعلُ المفسدين كالمُصلحينَ، أم نجعلُ الفجّارَ كالمُتّقين)، والغرضُ من ذلك إنكارُ مُشابهةِ الكافرين للمؤمنينَ؛ إذ لا وجهَ لعَكْسِه؛ والمرادُ نفيُ التَّشابُهِ لا التّشبيه، ووجهُ العدولِ عن ظاهر الكلام أنّ الكفّارَ لمّا ظنّوا أنّ الله خلقَ السّماءَ والأرض وما بينَهما باطلًا جعلوا المؤمنينَ كالمفسدينَ في عدمِ المُؤاخذة[2]، فكان الرَّدُّ على وفْقِ دَعواهم.

نكتةُ الإطنابِ في الآيةِ:

زيادةُ التّهويلِ بفضحِ أمرِ الضّالّين

جاءتْ هذه الآية على أسلوبِ الإطناب، والمقصودُ منه زيادةُ التّهويلِ والتّفظيع على الّذينَ ظنّوا ظنًّا يُفضي إلى أنّ الله قد خلقَ شيئًا من السّماءِ والأرض وما بينَهُما باطلًا؛ فإنّ في الانتقالِ من دلالةِ الأضعفِ إلى دلالةِ الأقوى، وفي تكرير أداةِ الإنكار شأنًا عظيمًا في فضحِ أمرِ الضّالّين[3]. ولا يبعدُ أنَّ هذا الإطنابَ قد حقّقَ فوائدَ عدَّةً، منها كونُهُ بيانًا تعليليًّا لسرِّ إصلاحِ المُصلحين في الأرض وإفسادِ

(1) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 372.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 398.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 250.

المفسدينَ فيها؛ بأنَّ تقوى المؤمنينَ علَّةُ الإصلاح، وفجورَ المفسدينَ علّةُ الإفساد، وأنَّ شأنَ المؤمنين التَّقوى وشأنَ الكافرين المفسدينَ الفجورُ، كما أنَّ المتَّقيَ يتحمّلُ المغريات بسببِ تقواه ويتعبُ، والفاجرَ يتفلّتُ من كلِّ رادعٍ ومانع؛ فكيف يستويانِ يومَ الحِساب؟!

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُجور والفِسق والفُحْش:

عـمـومُ الفجـور في كـلِّ مَيْلٍ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ

يظهرُ الفرقُ بين هذه الألفاظِ في علاقة العموم والخصوص، فالفُجور عامٌّ في كلِّ مَيْلٍ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ. ولهذا يُقال: أَفْجرَ الرَّجُل إذا كذَبَ، وأفجَرَ إذا عصى بِفَرْجِه، وأفجَر إذا كَفَر[1]. فالفجورُ يشملُ الاعتقادَ واللِّسانَ والعملَ، وأمّا الفسقُ فأصلُهُ في اللّغة الخروجُ، ومعناه اصطلاحًا: الخروجُ من طاعةِ الله بارتكابِ الكبائر، فهو خروجٌ مذمومٌ. وأكثر ما يقالُ (الفاسِقُ) لمَنِ التزمَ حكمَ الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضِها[2]. ويكون غالبًا خاصًّا بالأفعال. وأمّا (الفُحشُ) فيدُلّ على قُبحٍ في شيءٍ وشَناعة[3]؛ لمُجاوزتِه الحدَّ مع تكرُّهٍ له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفاحشةُ والفَحشاءُ: ما عظُمَ قبحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ[4]، وكلُّ ما حرَّمَهُ الشّرعُ فهو فاحِشٌ، لكنَّه غالبًا مختصٌّ بالأقوالِ.

وقد أوثر في الآية لفظُ (الفجّار)؛ لعمومِهِ ومُناسبتِهِ في مقابلة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وكذلك لمراعاةِ الفاصلةِ القرآنيَّة.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (فجر).
(2) الراغب، المفردات: (فسق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فحش).
(4) الراغب، المفردات: (فحش).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»